فأجاب شيخ من الغرباء : اختاره ربه الى جواره وهو أرحم الراحمين .

فأوغلت في جرأتي فقلت : لو أخذهم جميعا !

قال : كلنا اليها .

فقالت : رحمه الله . ومن خلف ما مات . وكان هاجس قد انتابني ان ما بدا على القوم من اضطراب ، على اثر الهرج والمرج في الخارج ، راجع الى ان طارشا في الخارج جاء يبلغهم بحقيقة أمري . فلما استوعبت ما جاء به مضيفنا عن وفاة شيخهم تنهدت مستريحا ووجدتني أقلت : الله سلم !

فلم تلحقني يعاد بقدمها ، هذه المرة ، الا بعد أن قضي الامر .

والغريب في هذا الامر ان القوم الغرباء همهموا مستحسنين دعائي وراضين عنه .

فانطلقت من تحت قدم يعاد أفسر لهم فلسفة عائلتنا ، المتشائل ، وان هناك موتا أسلم من موت ، وموتا أسلم من حياة . وان أخي البكر ، حين قطعه الونش في « بور » حيفا اربا ، دفناه جثة بلا رأس .

ومرة أخرى بدرت من القوم الغرباء همهمات الاستحسان والرضى عن فلسفتي العائلية العريقة حتى انهمكت في ترتيب كلام في رأسي يليق بسؤالهم عن اصول اشجارهم العائلية لعلنا ان نلتقي في أصل او في فرع . فكلنا من آدم .

غير ان يعاد اوقفتني عن هذه الرياضة الذهنية — التاريخية وهي تحوطني بذراعها وتشدني اليها شدا خفيفا وتهمس في اذني : عمي سعيد ، عمي سعيد ، جئت كي أزورك !

فصرخت : تزورين فحسب ؟

فأجاب مضيفنا ابو محمود : لا حاجة الى ذلك . لقد دفناه وانقضى الامر .

فقد ظن باننا نتحدث عن شيخه الميت لا عن شيخنا الحي .

فسألت : الليلة ؟

قال : الليلة .

— ولماذا لم تنتظروا طلوع الفجر ؟

قال : ان فجره لا يطلع غدا .

فعن أي فجر يتحدث ، اذن ؟ قلت ، وأنا محتار : انني لا أفهم من كلامك شيئا .

قال : ولا هم يفهمون !

فصرخت يعاد : نحن أصدقاؤكم ، فأفصح . ان الصمت يخنقكم .

قال : كل ما حوالينا ، نحن أهل القرى ، صامت : الارض والدواب والمحراث . ان لغتنا هي الصمت . فنتوارثها جيلا جيلا . فاذا كنتم تتحدثون بهذه اللغة تفهموننا ونفهمكم .

قالت : الا تزغردون ؟

قال : الامر أعقد مما تتصورين ، يا اختنا القادمة من بيروت . لقد زغردنا وزغردنا وزغردنا ، مثلما لم يزغرد أحد . ولكن أعراسنا كانت تتحول ، في كل مرة ، الى مآتم . والذي كنا نحسبه صديقنا كان يخطف العروس ويهرب الى بيروت !